

قراءة جديدة في نصوص معاهدة البقط وآثارها الحضارية والثقافية

د. ربيع محمد القمر الحاج

أولاً: ظروف ومسار توقيع اتفاقية البقط:

عرف المؤرخون والجغرافيون العرب في العصور الوسطى البلاد التي تقع في الجنوب من مصر على جانبي نهر النيل قرب مدينة أسوان شمالاً حتى النقاء النيلين الأبيض والأزرق جنوباً ببلاد النوبة ، إضافة إلى مناطق من حوض النيل الأزرق وما يليها غرباً (1) وكانت هذه المنطقة عند ظهور الإسلام تضم ثلاث ممالك نصرانية هي - من الشمال إلى الجنوب - مملكة نوباتيا ومملكة المقرة ومملكة علوة (2) ، وقد اتحدت المملكتان الشماليتان - وفي وقت غير معروف تماماً - في مملكة واحدة حملت اسم المقرة وعاصمتها مدينة دنقلة.(3) ولم يكد القرن السادس الميلادي يشرف على الانتهاء حتى أصبحت النصرانية ديناً رسمياً للنوبيين بالرغم من وجود طوائف كثيرة منهم ظلت محافظة على معتقداتها الوثنية القديمة حيث أخذت هذه الديانة طريقها إلى الممالك عن طريق البعثات التصيرية التي أرسلت مباشرة من قبل حكام الدولة البيزنطية ، وعن طريق المبشرين الأقباط القادمين من مصر.(4)

ولما فتح المسلمون مصر سنة 31 هـ واجهوا من نوبة مملكة المقرة الشمالية موقفاً عدائياً سافروا تمثل في مشاركتهم البيزنطية في القتال ضدهم (5) ، كما تمثل في شنهم غارات متتالية على حدود مصر ، الأمر الذي هدد الأمن هناك (6) مما حدا بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه أن يأمر عمرو بن العاص بوضع حد لهذا الخطر النوبي (7) فوجه عمرو بن العاص عدداً من الحملات واجهها النوبيون بعنف وصلابة شديديتين وهي نفس الصلابة التي واجه بها النوبيون من قبل الحملات الإغريقية البطلمية والرومانية على بلادهم ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن النوبيين ظلوا ينظرون إلى مصر على اعتبار أنها تمثل مصدراً مهماً من مصادر غذائهم وثر واثم وتجارتهم بسبب طبيعة بلادهم القاسية ولضيق الرقعة الزراعية المعتمدة على مياه النيل ، وبالتالي فإن أي تهديد لمصر يعتبر تهديداً لهم ولتجارتهم ومصادر قوتهم(8) فلم يأمر الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عن (9) وانتهت بذلك صلواته ببلاد النوبة.

وحين تولى والي مصر الجديد عبدالله بن أبي السرح الحكم واصل جهوده الرامية لوضع حد للخطر النوبي الذي يتهدد الحدود الجنوبية لمصر ، وتمثلت هذه الجهود في عدد من الحملات والسرايا واجهها النوبيون بعنف شديد (قال ابن لهيعة : حدثني الحارث بن يزيد قال : اقتتلوا قتالاً شديداً - أي عسكر عبدالله بن أبي السرح والنوبة - وأصيب يومئذ عين معاوية بن خديج وأبي شمر أبرهة الصباح وحيريل بن ناشر (10) فسماهم المسلمون رمات الحدق ، فقال الشاعر :

لم تر عيني مثل يوم دمقلة (11) والخيل تعدو والدروع منقلة

ترى الحماة حولها مجدلة كأن أرواح الجميع مهملة(12)

لكن عبدالله واصل حملاته وكانت أكبرها وآخرها حملة قادها بنفسه - في عام 31 هـ / 751 م (13) وذلك

لوضع حد نهائي لهذا الخطر ولتأمين الطريق التجاري الذي عطلته الحروب وهددته الغارات النوبية المستمرة ولحماية الحدود الجنوبية للإمارة التي ضمت حديثا لدولة الخلافة الراشدة.

بعد اجتيازه الحدود المصرية النوبية ، واصل عبدالله مسيرة حملته حتى دنقلة العاصمة النوبية فأحكم عليها حصارا قويا ، ورمها بالمنجنيق ، فتداعت المدينة وخرج ملكهم قليدروس 31هـ 652 / م (يطلب الصلح والأمان فاستجاب عبدالله بن أبي السرح لداعي الصلح فوقع معهم معاهدة عرفت باسم معاهدة البقط اختلفت في طبيعتها وبنودها عن المعاهدات التي ألفها المسلمون وطبقوها في تعاملهم مع غير المسلمين في ذلك الوقت (14) .

هذا وقد ظلت هذه المعاهدة تنظم العلاقة بين مصر وبلاد النوبة منذ توقيعها سنة 31هـ 651 / م حتى سنة 723هـ 1223 / هـ وهي السنة التي استقل فيها النوبة المستعربون من (بني الكنز بالمملكة فاعترف لهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون 741-693 هـ بذلك (15) ، وقد أحدثت تلك الفترة كثيرا من المؤثرات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية على أوطان النوبة مما كان له أكبر الأثر في تحول مستقبل البلاد والمناطق المجاورة لها.

في معنى البقط ومدلولها الاصطلاحي:

بالنظر في معنى كلمة بقط نجد أنه قد اختلف في أصل الكلمة ، أهى عربية أم غير ذلك ؟ والذين يرون أنها كلمة عربية صرفة اختلفوا في معناها اللغوي اختلافا واسعا ، فبالنظر في كتب المعاجم ، والقواميس نجد أنها وردت بمعنى الفرقة من الشيء وهي ، جمع بقوط وهو ماليس بمجتمع في موضع ، ولا منه ضيعة كاملة وإنما هو شيء متفرق من الناحية بعد الناحية ، وقال ابن منظور في اللسان : العرب تقول " : مررت بهم بقطا بقطا - بإسكان القاف - ويقطأ بقطا - بفتحها - أي متفرقين .

حكى ثعلبة أن في بني تميم بقطا من ربيعة أي فرقة منهم ، وقال مالك بن نويرة:

رأيت تميما قد أضاعت أمورها فهم بقطا في الأرض فرث طوائف

فأما بنو سعد فبالحظ دارها فبابات منهم مالف فالمزالف

أي منتشرون متفرقون ، والبقطه من الناس بهذا المعنى الفرقة منهم(16)

وقد تأتي بمعنى مخالف لهذا المعنى وذلك في قولهم " بقط متاعه بقطا اي جمعه وحزقه.(17) "

وربما ترد كذلك بغير المعنيين الأولين مثل قولك : تبقط فلان في الجبل إذا صعد فيه ففي حديث علي -

رضوان الله عليه أنه حمل على عسكر المشركين فما زالوا ييقطون اي ينفادون إلى الجبل متفرقين وهذا من

معاني البقط التي أوردها ابن منظور أيضا في لسان العرب.(18)

ومن معانيها الأخرى كذلك " البقط قماش البيت.(19) "

وقد أورد بعض المؤرخين المسلمين أن المعنى مأخوذ من الفعل بقط ف (بقط الشيء) (فرقة ، والبقط : أن

تعطي الجنة على الثلث ، فيكون معناه على هذا : بعض ما في أيدي النوبة.(20)

وأما الذين يرون أنها غير عربية فقد اختلفوا في أصلها فقيل إنها ترجع إلى لفظ مشتق من أصلين : الأول لاتيني

يوناني الأصل وهو Pacum ومعناها الاتفاق والموادعة والثاني مصري قديم وهو - باق - ومعناها الضريبة التي توضع عينا. (21)

وقال آخرون : إنها كلمة) فرعونية (قديمة وهي pakt وتعني العهد والموادعة (22) ، في حين ترد بمعنى فرعوني قديم آخر هو الصيد (23) أما المعنى الاصطلاحي في هذا البحث فهو ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عنهم. (24)

نصوص المعاهدة:

إن أهم مايلفت نظر الباحث المدقق في روايات ونصوص المعاهدة بحسب ما وردت في المصادر التاريخية مدى التباين الكبير والخلاف حول عدد من شروطها ومسار تطبيقها الأمر الذي يطرح عددا من التساؤلات وللإجابة عليها كان لا بد من الوقوف على أهم المصادر التي تحدثت أو نقلت نصوص المعاهدة واهتمت بها ومن أهمها رواية المؤرخ المعروف أحمد بن علي المقرئ الذي عاش في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ، وتأتي أهمية روايته - بالرغم من أنه مؤرخ متأخر - بسبب انفراده بذكر النص الكامل لمعاهدة البقط بخلاف المؤرخين الآخرين الذين أوردوا أجزاء منها في مؤلفاتهم مثل الطبري وابن عبدالحكم ، والمسعودي وغيرهم من كبار المؤرخين المتقدمين القريبين من زمان وأجواء توقيع المعاهدة.

نص معاهدة البقط بحسب رواية المقرئ (25)

عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن ابي السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير بين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة ، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ألا نحاربكم ولا ننصب لكم حربا ، وأن لا تغزوكم ما أقمتم على الشروط التي بيننا وبينكم ، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو بطرفه من مسلم ، أو معاهد حتى يخرج عنكم ، وأن عليكم رد كل أبق خرج إليكم من المسلمين حتى تردوه إلى ارض الإسلام ولا تستميلوا عليه ولا تمنعوا منه.

وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بقاء مدينتكم ولا تمنعوا منهصل ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن ينصرف عنه وعليكم كنسوا سراجة وتكرمته.

وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض اسوان.

فإن انتم قتلتم مسلما أو معاهدا أو عرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بقاء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس والستين رأسا برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

علينا بذلك عهدالله وميثاقه ودمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم.

الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك ، وكتبه عمرو بن شراحبيل في رمضان سنة 31 هـ. *

ثانيا : الآثار الحضارية والثقافية للمعاهدة:

ظل سجل الثقافة النوبية حتى مرحلة ما قبل توقيع معاهدة البقط يتأرجح في تفاعل بين ثقافتى الزنوج والحاميين من جهة ، وما طرأ عليها من مؤثرات خارجية على رأسها الأثر المصري من جهة أخرى ، فقد كان للحضارات المصرية التي قامت على حوض النيل الشمالي أثر كبير على الشعوب التي سكنت من حولها بوجه عام ، وعلى بلاد النوبة على وجه الخصوص ، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في مقدمات هذه الدراسة ، حيث أدت تلك العلاقة الى تسرب الأفكار ، والمعتقدات ، والطقوس ، والعادات ، والتقاليد كنتاج طبيعي أو حتمي للصلات الفكرية والتجارية التي كانت قائمة بين البلدين ، فكان قدماء المصريين يعتبرون ديار حيرانهم إلى الجنوب بمثابة مصدر مهم للمنتجات الإفريقية ومدخلا رئيسيا لها ، فتوغلّت القوافل التجارية منذ الدولة المصرية القديمة محملة بأدوات الزينة والحلي والأسلحة ، وكانت تعود بالذهب ، والزمرد ، والرقيق ، والأبنوس ، والعاج ، ويزدهار هذه العلائق التجارية توغل التجار جنوبا ، وأثروا تأثيرا حضاريا كبيرا ، مما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أن هذه الأجزاء من النوبة خضعت لفترات طويلة للاحتلال المصري المباشر ، وقد تجلّى ذلك في كثير من مظاهر الحياة النوبية في جانبها الثقافي والحضاري ، مما لاتزال مشاهده وآثاره باقية في أشكال الأواني الفخارية ، ومدافن الموتى ، وطريقة الدفن ، وبناء قصور الملوك ، إضافة إلى انتشار المعابد المصرية والرسومات الهيروغليفية ، ونقشي عبادة الآلهة المصرية جنبا إلى جنب ، مع بعض الآلهة الوطنية المحلية ، كما بقيت الاهرامات ، وطريقة دفن النوبيين لموتاهم في البركل ، ومروي ، وكبوشية (26) خير شاهد على ذلك الأثر الثقافي المصري القديم (27) وما أن ازدهرت الديانة النصرانية في العهد النصراني في بلاد النوبة ، حتى صبغت البلاد بكثير من مظاهر ثقافتها ، وتمثل ذلك في تحويل المعابد القديمة إلى كنائس ، وتم تشييد الكاتدرائيات التي ملئت بالزخارف والنقوش ، وبعض المشاهد من الإنجيل وصور القديسين (28) ، وظهر الأثر البيزنطي في التحف الفنية التي عثر عليها في كنيسة فرس ، إضافة لقطع الفخار وصور الحيوانات التي ظلت تمثل تقليدا وطنيا كان منتشرًا في مملكة علوة (29) ، كذلك يلاحظ الأثر النصراني القبطي في استخدام اللغة القبطية في أداء الطقوس الدينية الكنسية ، وقد ترجمت فيما بعد إلى اللغة النوبية (30) ، وكان كل ذلك بسبب هيمنة الكنيسة المصرية على الكنيسة النوبية ، بل أضحت الكنيسة المصرية هي التي تقوم بتعيينوا إرسال الأساقفة للكنيسة النوبية (31) ، ومع ذلك بقيت بعض العادات ، والتقاليد النوبية الوثنية سائدة في المجتمع النوبي (32) ، ومما يؤكد ماوردت الإشارة إليه سابقا من أن العقيدة النصرانية لم تتفاعل مع مشاعر الجماهير ، بل إنها فرضت على الناس فرضا ، إلا أن ذلك لا يمنع من القول : إن النصرانية قد ساهمت في تعديل ، وتهذيب كثير من هذه العادات والتقاليد الوثنية النوبية ، وبسطت بعض مفرداتها اللغوية والثقافية في البلاد ، وعاشت جنبا إلى جنب في المجتمع النوبي مع الموروثات الثقافية الوثنية ، حتى تمكن الإسلام في البلاد .

أما بعد توقيع معاهدة البقط فقد حدث الكثير من المؤثرات والمتغيرات التي كان من أهم نتائجها تحول مسار البلاد من النصرانية إلى الإسلام ، ولعله من المهم أن نشير إلى أن ذلك التحول لم يتم سريعا ولم يشمل بسطا حاسما لتعاليم الإسلام وإنما حدث ذلك إنسيابيا متدرجا اصطحب معه انتشار عدد من الظواهر التي من أهمها :

من المهم جدا أن يدرك دارسوا حركة مسار الدعوة الإسلامية أن انتشار الإسلام يعني حقيقة انتشارا لظواهر ثلاث متلازمة هي:

1- انتشار تعاليم الإسلام والشريعة الإسلامية بمعانيها الواسعة.

2- انتشار الثقافة العربية الإسلامية.

3- انتشار اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم ، والعبادة ، والخطاب الإسلامي.

(ولا يفهم من ذكر هذه الظواهر على هذه الصورة أن كل ظاهرة منها كانت منفصلة عن الأخرى تماما ، إنما كانت مختلطة متشابكة تسير جنبا إلى جنب ، وتتفاعل كلها في وقت واحد وتخضع لمؤثرات تكاد أن تكون واحدة). (33)

وقد خضعت الثقافة الإسلامية وانتشارها لذات الظروف التي خضعت لها الحضارة الإسلامية ومرت بالتطورات نفسها التي مرت بها الحضارة الإسلامية.

فقد جابهت الثقافة الإسلامية في إفريقيا المشكلة نفسها العامة التي جابهتها الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى ، وهي مشكلة أو ظاهرة الالتقاء الثقافي ، بل هي المشكلة نفسها التي تواجهها الحضارات الإنسانية عموما حين تلتقي وتختلط ، وتتبادل التأثيرات ، فمثلا في مصر التقت الثقافة الإسلامية الوافدة بثقافات إغريقية مصطبغة بصبغة الحضارة المصرية القديمة (34) ، هذا الالتقاء أظهر طرازا من الحضارة الإسلامية متأثرا في طابعه العام ببعض هذه الثقافات ، أي أن ذلك يعني " أن الإسلام أخذ وأعطى ، ومن هذا الأخذ والعطاء ظهرت الحضارة الإسلامية في مصر. (35) "

وقد ورد فيما سبق أن النوبة قد وقعت مع المسلمين (عهد البقط) بشروطه تلك ، وظل ذلك العهد يمثل نوعا من الاتصال الدائم بين المسلمين والنوبة مدة ستة قرون ونيّف ، وتسربت خلالها المؤثرات الإسلامية مع القبائل العربية التي بدأت تتغلغل هناك منذ القرن الثاني للهجرة ، على الرغم من أن المعاهدة كانت تعطيها حق الدخول في النوبة مجتازة لا مقيمة ، إلا أن هذه القبائل تقدمت في هجرتها وتوغلت جنوبا ، واستقرت قطاعات عريضة منها في شرق ووسط وغرب السودان ، حتى وصل هذا الوجود إلى الحبشة ودارفور في أواخر القرن السادس الهجري. (36)

وخلاصة الامر أن الوجود العربي الإسلامي في بلاد النوبة لم يظل حبيس المناطق الشمالية ، بل ظل يمتد على الدوام ، ويتوسع جنوبا مع كل ركب نانح ، أو هجرة لقبيلة ، أو جماعة من المسلمين تدفعهم إلى ذلك دواعي نشر العقيدة الإسلامية ، وبسط دعوتها ، إضافة إلى دوافع أخرى أمنية وسياسية واقتصادية ، وانفتحوا على السكان الوطنيين من نوبيين ، وبجة ، وزنج ، وغيرهم ، فصاهروهم أحدثوا مؤثرات كبرى في حياة النوبيين ، مما حملوه معهم من دعوة ، وثقافة ، ولغة ، ونظام حياة ، وقد قويت شوكتهم ، وأصبحوا مستظهرين على جميع من جاورهم هناك من النوبة والبجة إلى سنة أربع ومائتين. (37)

ثم إن المعاهدة ضمنت للمسلمين فتح بلاد النوبة للتجارة ، والسماح لتجارهم بارتياح البلاد على أن لا يقيموا فيها ، فكان التجار من أهم وسائل نشر الثقافة الإسلامية في بلاد النوبة ، وهو دور لا يستبعد أن يكون ولاية المسلمين

قد توقعوه من هذه الفئة المعروفة بنشاطها في مجال نشر الدعوة (38) وعلى أثر ذلك الاتفاق توغل التجار إلى أعماق بلاد النوبة ، ومع أنهم كانوا منصرفين إلى الأعمال التجارية في المقام الاول إلا أنهم كانوا روادا في نشر تعاليم الإسلام بين الوطنيين ، واستطاعوا بما كسبوا من معرفة لأحوال البلاد نقلهم تلك المعرفة لمواطنيهم وتمهيد الطريق لهجرة القبائل العربية في أعداد كبيرة . (39) كذلك من أهم وسائل انتقال الثقافة الإسلامية وانتشارها وسط النوبيين الأفراد والمجموعات التي شاركت في الحملات التي سيرها سلاطين المسلمين ، وولاتهم على النوبة عند إغارتها على جنوب مصر ، أو تراخيهم عن التزامهم بدفع ما عليهم من (بقط) حيث كانت أعظم هذه الحملات، وأكثرها على بلاد النوبة في العهد المملوكي (40) ، وقد استغل هؤلاء الجنود فرص الأمن والحماية ، وحق التوغل التي كفلها لهم عهد البقط، فاستقروا هناك بعد أن خلعوا عنهم صفات الجندية الرسمية ، وهو الأمر الذي طمأن النوبيين ، فزوجهم من بناتهم ، وتوثقت الصلات بينهم فنقل إليهم هؤلاء المحاربون القدامى كثيرا من مؤثرات الثقافة الإسلامية، وبالإضافة لهذه الجهود كانت هنالك جهود بذلها الدعاة الذين حملوا هم الدعوة ، ونقلوا كثيرا من مظاهر الثقافة الإسلامية للنوبيين ، والتاريخ ملي بعالشواهد الدالة على مدى توفيقهم في دعوتهم، ولذلك أسباب منها حماسهم الديني ، وما اتصف به الإسلام من بساطة ، ووضوح ، إضافة إلى أنهم في كثير من الأحيان كانوا يصاهرون القبائل الوثنية فيعينهم حق الأم على توطيد مراكزهم في الأسر (41) ، وقد ساهمت كل تلك العوامل في نشر الثقافة الإسلامية وسط أهل النوبة المسلمين الذين تأثروا بها تأثيرا مباشرا ، بل تجاوز هذا التأثير الإسلامي هؤلاء المسلمين إلى غيرهم الذين بقوا على نصرانيتهم إلى الوثنيين منهم. (42)

وهذا لايعني أن الثقافة الإسلامية قضت تماما على الموروثات الثقافية النوبية ، إذ إن ما حدث كان نوعا من التناقص تخلله انتقال بعض الموروثات من العادات والتقاليد بين الطرفين ولذلك نجد أن النوبة لم تتخل عن كل ما هو قديم وتليد من تراثهم ، لان ذلك فطرة الإنسان من حيث هو كائن، يرعى تراث الآباء والأسلاف ويفاخر بما خلفوه له ، بل وينظر إليه على أساس أنه تراث يجب حفظه ، والدفاع عن بقائه ، إضافة إلى أن الإسلام لم يطلب من الذين اعتنقوه وأقبلوا عليه التخلي عن كل موروثاتهم القديمة ، ما دامت لا تتعارض مع تعاليمه، وقد أبقى الرسول صلى الله عليه وسلم على بعض من عادات العرب في الجاهلية ما لم تكن مخالفة لتعاليم الإسلام - كما سبقت الإشارة إليه - بل إنه أثنى على بعض تلك الموروثات ، وأشار إلى أنه لو دعي إليها في الإسلام لاستجاب وشارك فيها ، مثل حلف الفضول الذي حضره صلى الله عليه وسلم في دار عبدالله بن جدعان بمكة المكرمة قبل مبعثه (43) إضافة إلى منهج الإسلام في التعامل مع ذلك الموروث هو العمل على تهذيبه ، وتنقيته مما يتعارض مع الدين ، وهذا ماحدث في كل المناطق التي أقبلت على الإسلام في إفريقيا ، ونشأت بذلك بيئات حضارية محلية لكل بيئة مقوماتها الخاصة ، واتجاهاتها الخاصة كذلك ، ولكن تجمعها في إطار واحد صفات إسلامية مشتركة من وحدة الدين ، واللغة، والمثل (44) ، ويمكن أن نسمي ماحدث في النوبة نوعا من الملازمة-أو المتاقفة - كما أشرنا إلى ذلك سابقا بين المحلي الموروث وبين الإسلامي المكتسب ، وقد تبنت بعض مظاهر تلك الثقافة الوليدة عند السلاطين والحكام في طريقة الجلوس للقضاء في المظالم ، أو في

لباسهم وفي المحيطين بهم، واستخدام بعضهم للطبول المصنوعة من القصب والقرع حيث يلاحظ ذلك كثيرا في بعض المجتمعات التي تحولت للإسلام حديثا خصوصا في غرب إفريقيا وغيرها (45) إضافة لما ذكره بعض المؤرخين الذين شهدوا تلك الممالك، ومن وصف للقصر ولحياة السلطان، واستخدامه لبعض المناصب والمصطلحات الإدارية، مثل: نائب السلطان، والفرادية الأمراء، والتراجمة (46)، وقد أشار بعض المؤرخين إلى تفشي هذه الظواهر نفسها عند السلاطين، الذين ورثوا الممالك النوبية، فيبدو الأثر الإسلامي واضحا في عاداتهم وأخلاقهم وفي الألقاب، والنظم والرسوم. (47)

أيضا من مظاهر تأثرهم بالثقافة الإسلامية ما عثر عليه في منطقة مينارتي -شمال دنقلة - من كتابات عربية على شواهد بعض القبور تحمل أسماء عربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين (48) وفي منطقة كلابشة ترجع إلى سنة 317 هـ / 927 م (49)، كما عثر في المنطقة نفسها على مقابر نوبية عليها كتابات باللغة القبطية، تحمل تاريخا مزدوجا من التقويمين، القبطي، والهجري، ويبدو أنها من آثار جاليات عربية، ثبت أنها استقرت هناك منذ القرن الثالث الهجري (50)، بل تظهر بعدها كتابات لاتحمل سوى التاريخ الهجري وترجع إلى القرن نفسه. (51)

وإذا كان هذا الأثر الإسلامي قد تبدى فيما كتب على شواهد القبور هذه، فإنه يتوقع أن يكون هذا الأثر قد صاحب كل المراحل التي تمر بها حالات الموت والوفاة، بدءا من غسل الميت وتكفينه حسب تعاليم الإسلام، ثم الصلاة عليه في وضع خاص باتجاه القبلة.

ومن مظاهر انتشار الثقافة الإسلامية وسط النوبيين اتخاذهم للأسماء العربية، وتسميتهم بها، فتحدث المصادر عن أن حاكم إقليم الجبل النوبي في تلك الفترة المبكرة كان اسمه قمر الدولة كشي (52)، وعن بعض علماء المسلمين من النوبة، مثل: يزيد بن أبي حبيب، وذو النون المصري النوبي الأصل (53)، وتحية النوبية الزاهدة (54)، وغيرهم من النوبيين الذين تسموا بالأسماء العربية وتخلوا عن الأسماء المحلية.

كذلك من المؤثرات الثقافية التي انتقلت إلى النوبيين من المسلمين اتخاذهم الحوادث التاريخية الشهيرة مناسبات يؤرخون بها، إذ كان العرب يؤرخون بالحوادث العظيمة في حياتهم كسيل العرم، وبناء الكعبة، وحرب البسوس، ويوم حليلة وغيرها (55)، فأخذ النوبيون والعرب المستعربون في بلاد النوبة حوادث: كسنة البعوضة، وسنة الفار، وقبلة العقال، وأصبحوا يؤرخون بها. (56)

وفي مجال العقوبات والجنایات بدأ الأثر الثقافي الإسلامي واضحا في حياة النوبيين الذين كان من أعرافهم الاجتماعية طرد من يرتكب جريمة السرقة من القرية (57)، إضافة إلى أن بعضهم كان في حالة طلاقه زوجته يستولي على جهازها، ثم يحلق رأسها، ووجود هذه الشرائع والأعراف في المجتمع النوبي يؤكد ضعف الأثر النصراني في البلاد، إذ إنها تقاليد وأعراف محلية تتنافى حتى مع التعاليم النصرانية وبعد تمكن الإسلام وبسط تعاليمه تأثروا به وبآدابه في التعامل مع مثل هذه المواقف، ومع الجنایات، فتقلصت إلى حد كبير تلك العادات والثقافات الوثنية الموروثة التي ظلت سائدة تحكم الحياة الاجتماعية للنوبيين وتوجهها.

هذا ولم يقف أثر الثقافة الإسلامية على عامة النوبيين فحسب، بل نجده قد تجاوزهم إلى ملوكهم وحكامهم الذين

عرفوا الكثير عن الإسلامو أركانها ، وفرائضه ، وسنن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن سيرته صلى الله عليه وسلم ، وعن أنساب القرشيين وقرابة الصحابة ، والأسر الحاكمة بعضها من بعض ، فيتضح ذلك من نص الحوار الذي دار بين عبدالله بن مروان بن محمد – آخر الولاة الأمويين على مصر – حين فر إلى بلاد النوبة خوفا من العباسيين الذين أرسلوا في طلبه ، وبين ملك النوبة حين علم بقدم عبدالله ودخوله أرض بلاده (58)، إذ يبدو الأثر الإسلامي واضحا في الحوار الذي جرى بين الملك النوبي وبين عبدالله بن مروان بحسب ما ذكرته المصادر التاريخية ، حيث ابتدر الملك النوبي ابن مروان (: كيف سلبتكم ملككم، وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم ؟ فقال عبدالله : إن الذي سلب منا ملكنا أقرب إلى نبينا منا (يقصد بذلك بني العباس) ، قال له ملك النوبة : فكيف أنتم تلوذون إلى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من الخمر ، وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم ، ولم يفعل نبيكم شيئا من هذا ؟ (59) بيد أن النوبيين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم أصحاب حضارة وثقافة أرقى وأسمى مما كانوا ليرددوا في الإقبال عليها والأخذ منها ، ومما يؤكد نظرتهم تلك مبادرة الملك النوبي إلى يد الأمير عبدالله وتقبيلها حين التقيا (60) ، بالرغم من أن عبدالله لم يكن رأس الدولة الإسلامية وإنما هو أمير من الأمراء ، أووال من الولاة هرع إلى المنطقة يطلب الأمن والأمان.

انتشار اللغة العربية:

لقد سبقت الإشارة إلى أن أي انتشار للدعوة الإسلامية في الحقيقة يمثل انتشارا لثلاث ظواهر:

1- انتشارا للعقيدة الإسلامية والشريعة.

2- انتشارا للثقافة العربية الإسلامية.

3- انتشارا للغة العربية ، باعتبارها لغة القرآن الكريم.

وهذا لا يعني بأي حال أن كل ظاهرة من هذه الظواهر منفصلة عن الأخرى ، بل هي ظواهر متداخلة تسير جنبا إلى جنب ، وتتفاعل كلها في وقت واحد ، وتخضع لمؤثرات واحدة كذلك.(61) وقد انتشرت اللغة العربية ، وازدهرت بعد توقيع معاهدة البقط وفتح بلاد النوبة لهجرة القبائل العربية ، ولم يحدث ذلك في يسر وسهولة ، بل صارت كثيرا من اللغات واللهجات التي كانت سائدة في تلك المناطق وناستها ، وخرجت من ذلك متغلبة عليها على مر الأجيال، وعبر الحقب التاريخية المختلفة ، وقد ساعدت عوامل كثيرة في ذلك الانتشار أهمها الآتي:

العامل الديني : فحيثما انتشر الإسلام واستقرت قواعده انتشرت اللغة العربية ، وقد ساعد على ذلك ما أجمع عليه أغلب أئمة المسلمين من عدم جواز ترجمة القرآن الكريم ، وعدم جواز كتابته بغير العربية ، وعدم جواز القراءة بغير العربية في الصلاة : (62) فهي لغة العبادة في الإسلام، لذا أقبلت عليها الشعوب المختلفة التي اعتنقت الإسلام ، تحاول تعلمها ومعرفة ألفاظها ومعانيها ، ومعاني القرآن الكريم ، حتى تصح العبادة ، وتؤدي على الوجه الصحيح المطلوب.

وهناك عوامل لغوية أيضا : ساهمت في انتشار العربية ، لان انتشار الدين وحده ليس كافيا في تعجيل سرعة هذا الانتشار ، إذ إن انتشار الإسلام كان أسبق من تعلم العربية بعدة قرون ، وهذا العامل هو وجه القرابة بين اللغة

العربية وبين أخواتها الساميات في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية من جهة ، وبين اللغات السامية والحامية من جهة أخرى ، مثل ذلك التشابه بين اللغات السامية والقبطية في الضمائر ، وأسماء العدد والتنثية وقواعد الصرف (63)

إضافة لذلك هناك العامل الحضاري : فالمعلوم أنه إذا ألتقت لغة ذات تراث حضاري متفوق مع أخرى حظها من التراث قليل فإن الأمر ينتهي بسيادة اللغة العريقة التراث والثقافة ، وهذا ما حدث في كثير من المناطق التي انتشر فيها الإسلام في القارة الإفريقية.

وبالنسبة لبلاد النوبة فإن (معاهدة البقط) قد ظلت تمثل الركن الأساس في مسار العلاقة بين البلدين ، وفي فترة سريانها تسربت المؤثرات الإسلامية في هدوء ، أدى في نهاية الأمر إلى تغيير مسارها الديني ، والسياسي والاجتماعي ، ولم يحدث ذلك التأثير إلا عبر مراحل مختلفة ، وفترات طويلة من المجاهدات والإسهامات التي قدمها المهاجرون من الدعاة والتجار والأفراد والرعاة ، وقد تبدت تلك المؤثرات في كثير من مظاهر الحياة النوبية.

أما ظاهرة انتشار اللغة العربية فقد كانت محدودة في أول الأمر ، وبدأت الجماعات العربية الأولى التي استقرت في بلاد النوبة نشر الإسلام وسط النوبيين بعد أن تعلموا لغتهم ، فسهلت مهمتهم بذلك. (64) وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تنتشر بين النوبيين في هذه الفترة المبكرة، ذلك أننا نجد كثيرا من الدلائل تشير إلى انتشارها في البلاد ، منها وجود كتابات في مقابر نوبية باللغة القبطية ، تحمل تاريخا مزدوجا للنقوبمين القبطي والهجري، ثم تظهر بعد ذلك كتابات من هذا النوع لاتحمل سوى التاريخ الهجري (65) ، ثم في مراحل متقدمة تظهر شواهد قبور مكتوبة بالخط العربي تحمل أسماء عربية ترجع إلى القرن الثالث الهجري. (66)

وفي هذه الفترة المبكرة ظلت اللغة العربية الفصحى لغة العبادة فقط إلى جانب اللهجة المحلية الدارجة لكل قبيلة (67)، أما لغة الأدب والخطابة والمحادثة فكانت الدارجة وحدها ، وقد ساعد على احتجازها في هذا الجانب قلة عدد المتعلمين منهم ، واشتداد العصبية القبلية ، وصعوبة الاتصال بين الجماعات المتناثرة في أنحاء النوبة المختلفة (68) ، إضافة إلى أن اللغة النوبية كانت متمكنة في البلاد ، إذ إنها تمثل إحدى اللغات الحامية التي هاجرت إلى النوبة في فترة ترجع إلى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح (69) ، ومع تحول ملوك النوبة للنصرانية ترجمت بعض النصوص الدينية إلى اللغة النوبية ، لكنها لم تكن لغة الشعائر والطقوس ، إذ ظلت اليونانية والقبطية هما لغتا الكنيسة النوبية (70) لكنها لم تتمكن في نفوس النوبيين ، رغم كونها لغات حية لها آدابها وعراقتها ووسعها ، وذلك بسبب أنها بقيت كلغة للشعائر الدينية محصورة في الكنيسة ، فلم تغادرها أصلا ، فضلا عن عدم فهم النوبة لها وتجاوبهم معها.

ولم يعرف النوبيون الذين اعتنقوا الإسلام في هذه الفترة المبكرة أداء الشعائر الإسلامية المفروضة على الوجه التام المطلوب ، ففي الصلاة مثلا لم يعرف قطاع كبير منهم منها إلا التهليل والتكبير (71) ، ومرد ذلك إلى قلة الفقهاء والمتعلمين ، أو المتخصصين في علوم اللغة ممن وفد إلى النوبة ، إضافة إلى أن البلاد لم تشهد حركة

علمية واسعة لها نشاطها ، ولم تكن كذلك ثرية ثراء الحركات العلمية التي قامت في بقية البلدان الإسلامية الأخرى ، ولم يكن لعلمائها شهرة وصيت ، مثلما كان العلماء في تلك البلاد.(72)

إلا أن ذلك لم يحل دون تسرب كثير من المفردات والألفاظ العربية إلى اللغة النوبية ، حتى أضحت في فترات متقدمة تمثل 30% من مجموع ألفاظ ومفردات اللغة النوبية (73) ، ومع مرور الزمن ، وكثرة اختلاط العناصر العربية مع النوبيين تحولت العربية من كونها لغة عبادة وشعائر إلى أن تصبح لغة ثانية بعد اللغة العامية النوبية ، وأصبح النوبي يتحدث بها في معاملته التجارية مع التجار العرب ، والتجار الآخرين القادمين من بلاد البجة ، وعلوة وغيرها ، فأصبحت العربية بذلك لغة تخاطب بينهم ، وقاسما مشتركا بين النوبيين أنفسهم ، حيث يتكلم بها النوبي ، إضافة للغة المحلية.(74)

على أن اللغة العربية التي انتشرت في النوبة لم تكن تخلو من ظهور بعض الاختلافات الشكلية بين اللهجات العربية القبلية ، ويظهر أن هذا التعدد يعود بأصولها إلى لهجات أقدم منها عاشت في شبه الجزيرة العربية (75) ، بيد أن هذه الاختلافات الشكلية بين اللهجات العربية لاتعدو أن تكون تغيرا طفيفا في النطق ، أو تغييرا لبعض الحروف والحركات والإبدال أو الحذف ، وقد حصرها بعض الباحثين في أربع مسائل:(76)

1- تغيير نطق بعض الحروف.

2- تغيير الحركات

3- حذف بعض الأصوات

4- تغيير مدلول الكلمة

إلا أن هذه الفروق لاتمثل اختلافا جوهريا يحول دون قيام ثقافة ذات مضمون وجوهر واحد، إضافة إلى كونها فوارق لاتمثل حاجزا لغويا يقف حائلا دون وحدة الثقافة ، والدليل على ذلك مايشاهد اليوم في السودان وادي النيل ، فرغم مايبين اللهجات العامية من فوارق في النطق والحركات والأصوات ، وأحيانا تغيير مدلول الألفاظ والكلمات ، إلا أن أهل السودان تنتظمهم ثقافة واحدة ، وهي الثقافة الإسلامية العربية.(77)

هذا وقد ظلت اللغة العربية تتقدم في المنطقة تبعا لتقدم الإسلام الذي استمر انتشاره تبعا لتوغل القبائل العربية في بلاد النوبة ، حتى عم أجزاء كبيرة في شرقي ووسط وغربي بلاد السودان ، حيث وصل إلى بلاد الحبشة شرقا ودارفور في غرب السودان في أواخر القرن السادس الهجري (78)، وتمكنت اللغة العربية بذلك من إضعاف استخدام اللغات المحلية في أوساط تلك المجتمعات .(79) إضافة إلى ذلك فقد أسهم الشيوخ من الدعاة الذين وفدوا إلى النوبة ، واستقروا في دنقلة ، وقرروا البقاء هناك -مساهمة كبيرة في نشر تعاليم الإسلام واللغة العربية بعد أن هالهم مارأوا من جهل مستشر بتعاليم الدين والعقيدة الصحيحة ، فأخذوا يعمرن المساجد وينشؤون المدارس وحلق تعليم القرآن الكريم وحفظه(80)

فكان لتلك الحركة العلمية على بساطتها ، وضعفها أثر واضح في انتشار اللغة العربية، وذلك بإقبال الأهالي على هؤلاء الدعاة للتعلم منهم ، والتعلم على أيديهم.

علي أن اللغة العربية لم تسلم من دخول بعض المفردات النوبية عليها لكنها بقيت واضحة كألفاظ غريبة ودخيلة

عليها ، ولم تؤثر في جوهرها ، وتتمثل في أسماء بعض الأدوات والصناعات التي لم يعرفها العرب في جزيرتهم ، فطلت هذه الأسماء مستعملة في اللغة العربية في معظم السودان وادي النيل .

ثالثا : مساهمات النوبيين الفكرية والعلمية في الحضارة الإسلامية:

وأما الاتجاه الخاص بنقل النوبيين إلى مصر وفتح الباب لهم للهجرة إلى هناك فقد كان من أغراضه جلبهم لمصر " لتربيتهم داخل المجتمع المسلم ليتشربوا عقيدته وثقافته ولغته وربما اعتنقت أعداد كبيرة منهم الإسلام فتكون قوة للمجتمع المسلم أو يرجعون إلى ديارهم فيصبحوا دعاة بين أهليهم وهذا ماحدث بالضبط خلال القرن الإسلامي الأول (81) وأصبح هؤلاء بتكاثرهم وتعاضمهم أعدادهم مشاركين في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية في مصر. (82)

ففي المجال السياسي نجدهم قد أدوا دورا هاما في هذا المضمار لاسيما منذ الفترة التي أخذت فيها الدول الإسلامية تولي مناصبها الإدارية والعسكرية للعناصر غير التي دخلت الإسلام حديثا، إذ من المعروف أن الخليفة العباسي المعتصم (218- 223هـ/833 - 842م) عمل على تدعيم سيادة العنصر التركي وبالتالي كسر شوكة بعض العناصر العربية ، ولقد انعكست هذه السياسة التي انبعثت من قلب الدولة الإسلامية على مكانتهم في مصر ، ذلك أن المعتصم كان قد أمر واليه على مصر اكيذر نصر بن عبدالله بإسقاط بعض العناصر العربية من دواوين الدولة، وقطع العطاء عنهم وكان ذلك في شهر رجب سنة ثمانية عشر ومائتين 218 (83)، وانتهجت الحكومات التي تعاقبت على مصر النهج نفسه والسياسة ذاتها ومن ثم كان العنصر النوبي من العناصر التي وجدت طريقها إلى الحياة السياسية والعسكرية بعد تصفية العناصر العربية في تلك المجالات ، ففي عهد الدولة الطولونية أصبح النوبيون يشكلون قوة لا يستهان بها في الجيش الطولوني ، كما زاد عددهم بصورة جعلت أحمد بن طولون يخصص لهم قطعة من القطائع .(84) التي كان قد أقامها لسكن العناصر المختلفة التي وردت إلى مصر ، وهناك مثلا قطعة لأهل النوبة كانت تعرف بهم (85) ، وفيما يبدو أن أعدادهم قد زادت في مصر ودخلت طوائف كثيرة منهم في الإسلام حتى أن أهل مصر رفعلوشكوى لأحمد بن طولون بسبب ضيق المسجد يوم الجمعة بسبب تدفق الجنود النوبيين فكان أن أمر أحمد بن طولون نتيجة لذلك ببناء مسجد جديد بجبل يشكر. (86)

وعندما قامت الدولة الإخشيدية بمصر استمر هؤلاء النوبيون يشكلون قوة مهمة في جيشها، حيث نجد أن محمد بن طفح الإخشيدي مؤسس هذه الدولة يجند عددا كبيرا من النوبيين في جيشه ، وربما كان السبب في تدعيم مكانة هؤلاء النوبيين في تلك الدولة مايقال إن كافور الإخشيدي في الاصل كان من بلاد النوبة .(87) وذلك استنادا على قصيدة للمتنبى يهجو بها كافورا وكان المتنبى قد وصف كافورا في هذه القصيدة (بالأبي) نسبة إلى الآبه وهي موضع ببلاد النوبة كما ورد (88) فقد جاء في تلك القصيدة قول المتنبى:

كان الأول الآبي فيهم غراب حوله رخم وبوم(89)

ومهما يكن من أمر فقد تبوأ كافور مكانة عالية في الدولة الإخشيدية وبسط سيطرته عليها وكان من الطبيعي أن يجند كافور خلال فترة حكمه كثيرا من النوبيين في الجيش ، لضمان حمايته مما قد يتهدد وضعه الأمني

والسياسي ، وهؤلاء بحسب قرابته وأصوله خير من يدافع عنه ويناصره عند الحاجة إلى القتال والمدافعة ، إضافة إلى استخدامهم في ضبط نظام الدولة العام وأمنها الداخلي لما يجد عندهم من الطاعة والالتزام أكثر مما يجده عند غيرهم.

وكان للنوبة أيضا مشاركتهم السياسية في العهد الفاطمي والعهدين الأيوبي والمملوكي.(90)

ولم يقتصر دور هذه العناصر النوبية في المجال السياسي والأمني والاقتصادي فحسب بل كان لفئات منهم مشاركات إيجابية في الحياة العربية الإسلامية في مصر .(91)فتحدثت المصادر عن رجل نوبي يدعى صبيح بن عبدالله الخازن استطاع أن يتبوأ مقاما كبيرا في بلاط السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وذلك بفضل ما كان يتمتع به ذلك الرجل النوبي من صفات خلقية حسنة – كالتدين وحب الخير ، كبر مقامه عند الأشرف ورجال بلاطه أنهم لاينادونه قط إلا بلفظ(يا أبي) مما يدل على احترامهم وتقديرهم له ، وقد توفي سنة 775 هو خلف مالا كثيرا وكان يوصف بخير ودين.(92)

كذلك عمل كثير منهم في الجوانب الإدارية والإشراف على بعض شؤون القصر كجزء من المهام الحكومية فمثلا في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ، تبوأ أحد النوبيين مكانة عظيمة في الدولة إذ عينه الملك الظاهر أمير جانداره (93) كما منحه الكثير من الممتلكات.(94)

وعند استعراض المجال العلمي نجد أنه كان لهم دور ملحوظ – متى ما تيسرت لهم الأسباب – في ولوج هذه الحياة المزدهرة في شتى نواحيها ، شأنهم في ذلك شأن الجماعات التي وفدت إلى مصر فطاب لها المقام وشاركت في الحياة العامة وفي الأوضاع الاجتماعية بوضع خاص.(95)

هذا وقد برزت بعض الشخصيات النوبية في مجالات العلوم الشرعية والفقهية ورواية الحديث النبوي مثل يزيد بن أبي حبيب ، ومنهم ممن سلك طريق الزهد والتصوف مثل ذوالنون المصري النوبي الأصل وتحية النوبية وغيرهم.(96)

أما يزيد بن أبي حبيب ، فله أبو حبيب ، واسمه سويد ، كان من النوبة الذين أسره المسلمون في حملتهم على النوبة سنة 31 هـ/651 م ، ونشأ ابنه يزيد نشأة عربية إسلامية وتفقه علي يد عدد من شيوخ مصر ، ثم تخرج على يده عدد من الشيوخ ، قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث مات في خلافة مروان بن محمد سنة 128 هـ كان فقيه مصر ، قال الليث : هو عالمنا وسيدنا.(97)

ومنهم كذلك أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذئ النون المصري رضى الله عنه(98) ، نشأ في مصر في القرن الثاني للهجرة ، وقد حج وتلقى الموطأ عن بعض أصحاب مالك بن أنس ، ولما عاد ذو النون إلى مصر مال إلى حياة الزهد والتصوف (99) ، وقد أشبع في نفسه هذه النزعة عن طريق الرحلة إلى المناطق النائية في صحاري الشام والعراق والمغرب وأوطان البجة ، وتوفي بالحيرة وحمل في مركب إلى الفسطاط ودفن في مقابر أهل المعافر سنة 246 هـ.(100)

وفي قصة تحية النوبية ما يؤكد التحول الذي ذكرنا أنه حدث وسط النوبيين – البقط – الذي كان يؤدي إلي ولاية المسلمين في مصر حسب نصوص المعاهدة فالرواية تقول " زوى أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي

قال : سمعت المالين الصوفي يقول : دخلت على تحية زائرا فسمعتها تقول من داخل البيت وهي تناجي : يامن يحبني وأحبه ، فدخلت إليها ، وسلمت عليها وقلت : يا تحية هب أنك تحبين الله تعالى ، فمن أين تعلمين أنه يحبك ؟ فقالت : نعم إنني كنت في بلد النوبة ، وأبواي كانا نصرانيين ، وكانت أمي تحملني إلى الكنيسة وتجيء بي عند الصليب وتقول : قبلي الصليب ، فإذا هممت بذلك رى كفا تخرج فتزد وجهي حتى لا أقبله ، فعلمت أن عنايته بي قديمة (101) ولايستغرب الباحث من وجود شخصيات نوبية ملتزمة بتعاليم الإسلام في هذه الفترة المبكرة لاسيما أن هناك بعض الروايات التي تشير إلى أن التدين والالتزام من صفاتهم القديمة ، فنسبوا إليهم لقمان الحكيم وبلال بن أبي رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه.(102)

وبشكل عام يمكن القول بأن نقل هؤلاء النوبيين – أو انتقالهم – إلى مصر قد حقق أغراضا عديدة، كان من أهمها تحويلهم للإسلام ، بل نبوغ بعضهم في بعض العلوم الشرعية.

هذا وقد ساهم هذا البند بشكل آخر في انتشار الإسلام ، والدعوة إليه ، ذلك أن إلزام النوبة بشروط المعاهدة سنويا ظل يشكل حملا ثقيلًا عليهم ، وظهرت محاولاتهم للتمرد من الإلتزام بأداء ما عليهم من بقط (103) فتظهر الحكومة في مصر إلى تجريد حملات ضدهم يشارك فيها عدد من القبائل والافراد أثر بعضهم البقاء هناك بعد أن تعرفوا على البيئة النوبية واستقروا فيها وخلصوا النوبيين وتزوجوا منهم ونقلوا لهم الإسلام والدماء العربية ، إضافة إلى ما حقتته هذه الحملات القوية من أضعاف لقدرات النوبة العسكرية والاقتصادية والسياسية (104).

رابعا : نتائج الدراسة:

وبالتأمل والنظر في بنود هذه المعاهدة وفي تفصيلاتها وفي مسار تطبيقها وبسرياتها على النحو الذي ذكرنا في ثنايا البحث يخرج الباحث بعدد من النقاط والملاحظات المهمة ومن ذلك مايلي:

1- أن المعاهدة تقف دليلا شامحا على روح التعايش الأتني والتسامح الديني والثقافي الذي كان سائدا بين المسلمين وبين النوبيين في ذلك الوقت ، فورد اعتراف صريح من المسلمين بالنصرانية التي كانت تدين بها الممالك النوبية حيث ورد في الصلح (ولنا عليكم بذلك أعظم ماتدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين) بل ذهب المسلمون أكثر من ذلك حيث تم الاعتراف بكافة الأديان الاخرى إذ جاء في المعاهدة (وديانة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم) فكان أول نتاج هذا التعايش والتسامح أن التزم النوبيون بحفظ وحماية مسجد دنقلا الذي بني في حاضرة العاصمة النوبية قبل توقيع المعاهدة ويرجح بعض الباحثين أن يكون قد تم بناؤه على يد التجار الذين ظلوا يمثلون دائما طليعة حركة الدعوة والمد الإسلامي في مناطق كثيرة من القارة الإفريقية . وفي المقابل ظلت كنيسة سوبا حاضرة مملكة علوة النصرانية شامخة شاهقة حتى بعد سيادة العنصر العربي الإسلامي المنطقة دون أن تمس بسوء.

2- أن المرونة والسعة التي تميزت بها هذه المعاهدة جعلتها تمثل إطارا جامعاً مانعاً للعلاقات بين المسلمين وبين النوبيين لمدة تزيد عن الستة قرون وذلك في الفترة من (31- 713 هـ - 651- 1323 م) .

3- ويمكن القول أن المعاهدة قد عززت مبدأ عدم الاعتداء والتعدي وحفظ الأموال والأنفس والدماء (إنكم

معاشر النوبة آمنون بأمان الله ورسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم ألا نحاريكم وألا ن نصب لكم حربا ولا نغزوكم () ، وبذا يمكن القول أن هذه النصوص القانونية المحكمة البليغة قد قدمت نموذجا راقيا وحجة قوية داحضة تبطل دعاوي بعض المستشرقين من المؤرخين الغربيين الذين كتبوا جوانب من تاريخ السودان بانفعال وعصبية واضحة تستصحب في ثناياها ما حدث في مجتمعاتهم وبلدانهم من تناقض وتنافر سجلته المصادر التاريخية وأرادوا نقلها وتسويقها لطمس الحقائق وتزوير التاريخ.

4- أن الشروط والبنود المتعلقة بالمرور الحر للأفراد والبضائع كانت عاملا مهما في عملية التغيير الذي حدث في مستقبل العلاقة بين الطرفين بل وفي مستقبل البلاد والمنطقة كلها .

5- أن التغيير الذي أحدثته المعاهد في جملتها لم يتم بشكل فجائي عجل تمثل في إحاطة كلية بالنظام السياسي والاجتماعي والديني النوبي ، بل انتظم في عملية تراكمية – بطيئة أدت في النهاية إلى انتقال طوعي متدرج بالمنطقة إلى الإسلام وحيث استغرق ذلك أكثر من ستة قرون هي فترة سريان المعاهدة .

6- أن الزيارة التي قام بها ولي عهد النوبة جورج بن زكريا لبغداد في العصر العباسي للتفاوض في بعض بنود معاهدة البقط مع الخليفة المعتصم تعكس صورة زاهية للعلاقات السلمية التي كانت سائدة بين المسلمين والنوبيين في ذلك الوقت ، وهذه الزيارة ما كان لها أن تتم في تلك الظروف والأجواء وعلى تباعد المسافة بين دنقلة حاضرة النوبيين ، وبين بغداد حاضرة العباسيين ، لولا حالة الأمن والاستقرار والثقة التي أشاعتها معاهدة البقط في كل منطقة وادي النيل وأطراف من بلاد الشام والرافدين .

7- أن معاهدة البقط قد قامت أصلا على مبادئ السلام والتعايش والأمان في مقابل الاعتراف والاحترام وتبادل المصالح التجارية بين الطرفين .

8- أن المعاهدة قد وطنت الصلة بين الطرفين في وقت مبكر بسبب أنها أمنت الحدود والقوافل التجارية ، وانفتح الباب من ثم للهجرات والحراك السكاني ودخل الجميع في علاقات تصاهر وتزواج أدى لظهور أجيال المولدين فتوافرت بذلك علاقات اجتماعية واسعة ، مكنت للثقافة الإسلامية واللغة العربية في البلاد وازدهرت حركة التجارة وحركة الملاحة في البحر الأحمر ، وفي منطقة وادي النيل فنشأت المدن والمراكز والموانئ النيلية ، وانتقلت أعداد من النوبيين إلى مصر للتجارة وللعلم واستوطن بعضهم هناك وشارك مشاركات كبيرة في حركة السياسة والاجتماع والعلم والمعرفة حتى أضحت لهم حاراتهم الخاصة ، وأصبح بالأزهر رواق كامل يعرف برواق النوبة والسودان ، وأدى ذلك إلى بروز عدد غير قليل من العلماء النوبيين الذين أصبحوا منارات شامخة في الأدب والفقه والفتيا وعلم الحديث ، وقدموا بذلك مساهمات مقدرة وكسبا وحضورا معتبرا في بناء وتثبيت معالم الحضارة الإسلامية سجلتها لهم مصادر التاريخ بأحرف من نور .

الهوامش:

- 1- اليعقوبي (أحمد بن إسحاق) : كتاب البلدان ، ص 90 ، المطبعة الحيدرية ، النجف 1377 هـ / 1957م – الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، ج 4 ، ص 111 ، دار سويدان ، بيروت -1967 المقريزي (أحمد بن علي) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج 1 ، ص 200 ، المطبعة الأميرية ، القاهرة 1370 هـ
- 2- مصطفى محمد مسعد ، المكتبة السودانية العربية ، ص 92 ، دار الاتحاد العربي للطباعة القاهرة 1972م ، شوقي عطا الله الجمل : تاريخ وحضارات السودان وادي النيل ، مكتبة الانجلو المصرية 1969م مكي شبيكة : السودان عبر القرون ، دار الثقافة ، بيروت 1967 م
- 3- المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج 1 ، ص 200 ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 2 ، ص 599 مكتبة الاسدي ، طهران 1965 م أبو الفدا اسماعيل بن علي بن جعفر بن شاهنشاه : تقويم البلدان ، ص 159 ، القاهرة ، 1386 هـ ، أبو صالح ، الأرمني ، تاريخ الشيخ ابي صالح الارمني ، ص 121 ، اكسفورد 1984 م
- 4- شوقي الجمل : تاريخ السودان وادي النيل ، ج 1 ، ص 206 م
- 5- الطبري : الأمم والملوك ، ج 4 ، ص 109 ، أبوالمحسن يوسف بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج 1 ، ص 24 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1386 هـ
- 6- المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج 1 ، ص 200
- 7- المسعودي (علي بن الحسين بن علي : (مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 1 ص 441 ، دار الالسن للطباعة والنشر ، بيروت 1393 هـ ، 1973 م
- 8- Procopius K History of the wars , vols , ed Dewing H.B. (London, 1961 1x1x24 P.P. 185-87
- 9- ابن عبدالحكم : فتوح مصر ، ص 188 – 169
- 10- ابن الفرات (محمد بن عبدالرحيم بن علي المصري (تاريخ ابن الفرات ، ج 1 ، ص 44 ، نشر قسطنطين زريق ، بيروت 1983 م
- 11- دمقلة أو دنقلة : بضم أولها وسكون ثانيها وضم قافها ، هي منزلة ملك بلاد النوبة وطول بلاده على النيل مسيرة ثمانين ليلة ، ولها أسوار عالية لاترام مبنية بالحجارة (ياقوت الحموي) : معجم البلدان ، ج 2 ص – 599 البغدادي (عبدالمؤمن بن عبدالحق) : مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ج 2 ، ص 524 ، دار إحياء الكتب العربية ، 1373 هـ/1954م
- 12- ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج 7 ، ص 45 – 44
- 13- الدمشقي (محمد بن أبي طالب الأنصاري) : نخبة الدهر في عجائب البر والحر ، ص 269 ، مكتبة المثنى ، بغداد (دون تاريخ) – المقريزي المواعظ والاعتبار ، ج 1 ، ص 200 (وهو عبدالله

بن سعد بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن مالك بن سجل بن عامر ابن ؤي القرشي البطاح) أخو الخليفة الراشد عثمان بن عفان من الرضاعة ، حيث أرضعت أمه عثمان ، كان رسول الله صلي الله عليه وسلم قد أهدر دمه فاستجار بعثمان يوم الفتح فقبل النبي ذلك إكراما لعثمان ، وأسلم منذ الحين وحسن إسلامه ، وكان من كتاب الوحي وروى بعض الأحاديث عن النبي صلي الله عليه وسلم ، ولاه عثمان مصر سنة 25 هـ وفتح إفريقية ، وكان فتحا عظيما شهده معه عبدالله بن عمر ، وعبدالله ابن الزبير ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، فتح النوبة ودخل معه في معاهدة البقط سنة 31 هـ ، وقيل بل سنة 59 هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان (هذا والله أعلم) محمد بن سعد بن منيع : الطبقات الكبرى ، ج 77 ر 497 - 2/496 ، دار صادر ، بيروت ، 1380 هـ / 1960 م / الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 3 ص 317 ، مطبعة السعادة ، مصر 328 هـ)

- 14- -الدمشقي : نخبة الدهر ، ص 269
- 15- -المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج 2 ، ص 259 ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، 1941 ، ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج 5 ، ص 922 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1968 م .
- 16- -ابن منظور (محمد بن مكرم) : لسان العرب ، ج 1 ، ص 243 ، 244 ، دار لسان العرب بيروت
- 17- -المعجم الوسيط ، معجم اللغة العربية ، ج 1 ، ص 65
- 18- -ابن منظور : لسان العرب ، ج 1 ، ص 244 ، 243
- 19- -بطرس البستاني ، محيط المحيط ، ص 48 ، مكتبة لبنان ، بيروت
- 20- -المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج 1 ، ص 199
- 21- -مكي شبكية : السودان عبر القرون ، ص 302 ، يوسف فضل حسن : الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان ، ص 31
- 22- -عطية القوصي : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، ص 44 ، دار المعارف مصر 1981 م
- 23- -مصطفى مسعد : معاهدة البقط نمط فريد في مجال العلاقات الدولية في الإسلام ، ص 478 ، بحث منشور بمجلة اللغة العربية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الخامس 1395 هـ
- 24- -المقريزي : المواعظ والأخبار ، ج 1 ، ص 199
- 25- -المقريزي (أحمد بن علي المقريزي) ولد بالقاهرة سنة 776 هـ 1364 - م بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالي وتولى جده لأمه أمر تعليمه وتنشئته على أصول الحنفية ، وانكب هو على الدرس والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره وأظهر نجابة مقدرة ، ولما مات جده انتقل المقريزي إلى الشافعية ودرس الفقه دراسة واسعة . في سنة 1398 هـ اختاره السلطان برفوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين ، ثم عاد المقريزي لدائرة المشتغلين بالتدريس مرؤخرى ، فتولى التدريس بالمدرستين الإقبالية والإشرافية بدمشق ، ثم رحل إلى مكة المكرمة واقام بها خمس سنوات

اشتغل خلالها بالتدريس والتأليف ، عاد بعدها إلى القاهرة وبدأ نشاطا علميا مكثفا فألف كتابه : عقد جواهر الاسقاط في أخبار مدينة الفسطاط وهو تاريخ مصر من الفتح العربي حتى قبل قيام الدولة الفاطمية ثم تلاه بكتاب في تاريخ الدولة الفاطمية أسماه اعظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ثم كتب بعد ذلك كتاب السلوك في معرفة الأعيان المفيدة ، وبشكل عام يمكن القول إن المقرئ من قلائل المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ العام والتاريخ الاقتصادي ، والتاريخ الاجتماعي حتى تجاوزت مؤلفاته المائة مؤلف توفي سنة 745 هـ (محمد بن عبدالرحمن السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص 21 ، مكتبة الكليات الأزهرية ، 1380 هـ 1960 م - محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج ، ص 811 - 80 - 79 مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1348 هـ - مصطفى مسعد : المكتبة السودانية العربية ، ص 294 - 293 ، دار الاتحاد العربي للطباعة ، القاهرة 1972 م

- عن المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار بتصريف
- 26- من مدن النوبة الشمالية
- 27- انظر : حسن سليمان محمود وجلال الشاويش ، تاريخ السودان في العصور القديمة ، دار مصر للطباعة ، القاهرة.
- 28- المرجع السابق ، ص 151
- 29- يوسف فضل، دراسات في تاريخ السودان ، ج 1 ، ص 17
- 30- ابن سليم الاسواني أخبار النوبة ، عن المصدر السابق ، ج 1 ، ص 193
- 31- شوقي الجمل ، تاريخ السودان وادي النيل ج 1 ، ص 222
- 32- المرجع السابق ، ص 222
- 33- حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص 17
- 34- المرجع السابق ، ص 12
- 35- حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص 14
- 36- حسن إبراهيم حسن ، انتشار الغسلام والعروبة ، ص 103
- 37- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 65
- 38- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص 114
- 39- جعفر أحمد صديق : انتشار الإسلام في السودان في القرن الثالث للهجرة ، ص 214
- 40- المرجع السابق.
- 41- عبدالمجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ، ص 34
- 42- ابن سيد الناس : السيرة النبوية ، ج 1 ، ص 68 ، صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص 68 ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة.

- 43- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص17
- 44- القلقشندي : صبح الأعشي في صناعة الإنشاء ، ج 5 ، ص400
- 45- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، 684- 688 ، دار صادر ، دار بيروت ، 1384 هـ/ 1964م
- 46- نعوم شقير : تاريخ السودان ، ص139 – 137
- 47- المرجع السابق.
- 48- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص138
- 49- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص298
- 50- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص140
- 51- ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج 7 ، ص46
- 52- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 2 ، ص283 – 280
- 53- ابن الجوزي : صفة الصفوة ، ج 4 ، ص292
- 54- عبدالله عبدالرحمن الامين : العربية في السودان ، ج 1 ، ص 17 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1967م
- 55- المرجع السابق ، ص16
- 56- جون لويس بوركهارت : رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ، ص 127 ، ترجمة فؤاد اندراوس ، مطبعة المعرفة
- 57- المصدر السابق ن ص29
- 58- ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ص29
- 59- المصدر السابق : ص29
- 60- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص35
- 61- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص36
- 62- المرجع السابق : ص50
- 63- المرجع السابق : ص51
- 64- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص132
- 65- المرجع السابق : ص133
- 66- المرجع السابق : ص130
- 67- ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، ص 17 ، الدار السودانية للكتب ، الخرطوم 1395 هـ
- 68- عبدالمجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ، ص34
- 69- المرجع السابق : ص14
- 70- ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان – 78 – 76 المقريزي /المواعظ والاعتبار ، ج 1 ، ص192

- 71- بوكهارت : رحلات بوركهارت في بلاد النوبة ، ص128
- 72- محمد إبراهيم أبوسليم : دور العلماء في نشر الإسلام في السودان ، ص52
- 73- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص52
- 74- نعوم شقير : تاريخ السودان ، ص57
- 75- محمد فوزي مصطفى : الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان ، ص23
- 76- المرجع السابق : ص 24 ، عون الشريف قاسم ، قاموس اللهجة العامة في السودان ، ص 13 ،
والصفحات التالية ، المكتب المصري الجديد القاهرة 1405 هـ / 1985 م
- 77- لمزيد من التفاصيل في أوزان اللهجات وتغير الاصوات وتغير مدلول الكلمة ونطقها ، انظر :عون
الشريف قاسم : قاموس اللهجة العامية في السودان ، وعبدالمجيد عابدين تاريخ الثقافة العربية في
السودان .
- 78- حسن إبراهيم حسن : إنتشار الإسلام والعروبة ، ص103
- 79- جونتاني فاينتي : تاريخ المسيحية في الممالك النوبية ، ص14
- 80- يوسف فضل : الهجرات البشرية ، ص24-25
- 81- جعفر أحمد صديق : انتشار الإسلام في السودان في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، ص 225 ،
رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى 1408 هـ.
- 82- سرالختم عثمان : أثر السودانيين السياسي والاقتصادي والثقافي على المجتمع المصري في العصور
الوسطى ، بحث منشور بمجلة الدراسات السودانية ، العدد الأول ، ص 23 – 42 ، معهد الدراسات
الإفريقية الآسيوية ، جامعة الخرطوم ، يونيو 1973 م.
- 83- ابو عمر محمد بن يوسف الكندي : الولاة والقضاة ، ص 195 ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت
1908م.
- 84- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج 1 ، ص313
- 85- البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، ص52
- 86- أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ، ولاة مصر ، ص 254 ، تحقيق حسين نصار ، دار صادر ، دار
بيروت ، 1379 هـ / 1959 م
- 87- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 4 ، ص335
- 88- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 4 ، ص335
- 89- أبو الطيب المتنبى : ديوان المتنبى ، ص 503 ، دار صادر ، دار بيروت.
- 90- المرجع السابق.
- 91- لمزيد معرفة عن ذلك انظر : سرالختم عثمان : أثر السودانيين السياسي والاقتصادي والثقافي على
المجتمع المصري في العصور الوسطى.

- 92- ابن حجر العسقلاني : أنباء القمر بأبناء القمر ، ج 1 ، ص 66 ، تحقيق د. حسن حبشي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة 1389 هـ 1969 م -
- 93- أمير جاندارهو الي يستأذن دخول الأمراء وللسلطان ، هذا إلى أنه يتقدم موكب السلطان في سفره ، انظر القلقلشندي : صبح الأعشاء في صناعة الإنشاء ، ج 3 ، ص 165/ 164
- 94- محي الدين بن عبدالظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص 3 ، تحقيق د. عبدالعزيز الخويطر ن الرياض 1382 هـ.
- 95- سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص 5 دار النهضة العربية ، القاهرة 1382 هـ
- 96- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص 140
- 97- البخاري : التاريخ الصغير تحقيق محمود إبراهيم ، دار الوعي ، حلب 1397 هـ 1977 م / ج 2 ، ص 11 - 10
- 98- ابن الوردي : خريدة العجائب ، ورقة 21
- 99- أحمد بن محمد بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، ج 2 ص 283 - 280 ، دار الثقافة ، بيروت
- 100- عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي : صفة الصفة ، ج 4 ، ص - 293 - 292 دائرة العثمانية حيدر اباد الهند ، 1356 هـ.
- 101- المصدر السابق : ج 4 ، ص 302
- 102- ابن الوردي : خريدة العجائب ، ورقة 21
- 103- منها محاولة ولي عهد النوبة جورج بن زكريا ، الذي ضغط علي والده لأجل أن يثنيه عن دفع البقط ، وكان احتجاجه هذه سبب في زيارته لبغداد عهد الخليفة المعتصم انظر ربيع محمد الحاج : معاهدة البقط وآثارها الحضارية والسياسية والاقتصادية علي بلاد النوبة ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية العلوم الاجتماعية ، قسم التاريخ والحضارة جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض 1412 هـ.